

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

أَصْنَافُ النَّاسِ بِحَسَبِ الْإِنْتِفَاعِ بِهِمْ وَعَدَمِهِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا

الحمد لله ، والصلاة والسلام على رسول الله ، وعلى آله وصحبه ومن والاه .

وبعد : فإن الله تعالى خلق الناس وجبلهم على طبائع مختلفة لحكم عظيمة ، فجعل منهم العاقل وغير العاقل ، والحليم والأحمق ، وحسن الخلق وسيئه ، والمتواضع والمتكبر ، والكريم والبخيل ، وغيرهم من طبقات الناس المختلفة ، والذين يتعذر وصفهم وتصنيفهم التصنيف الدقيق .

لكن العاقل يتعامل مع أصحاب هذه الطبائع المختلفة وفق الميزان الثلاثي الذي عبر عنه شيخ مشايخنا العلامة الجليل : محمد علي بن عبدالودود الشنقيطي رحمه الله تعالى في قوله :^(١)

النَّاسُ مِنْهُمْ دَوَاءٌ فَاتَّخِذْهُ لَهُ ^(٢)	إِلَيْهِ تَحْتَاجُ أَحْيَانًا فَأَحْيَانًا
وَمِنْهُمْ كَالْغِذَاءِ الدَّهْرَ تَطْلُبُهُ	فَلَسْتَ عَنْهُ غَنِيًّا أَيْنَمَا كَانَا
وَكَمْ أَخٍ لَسْتَ مُحْتَاجًا لَهُ أَبَدًا	كَالدَّاءِ يَشْقَى بِهِ الْإِنْسَانُ أَرْمَانَا

فكل من تتعامل معهم من إخوانك المسلمين لا يخرج التعامل معهم عن هذا الميزان الثلاثي ، وهم باعتبار طبائعهم طرفان ووسط ، كما جاء في هذه الآيات .

فالطرف الأول : وهم أول الأصناف الثلاثة ، ويمثلون السواد الأعظم ممن نتعامل معهم ، فمنهم الموظف في الدوائر الحكومية ، يذهب الواحد منا إليه لقضاء حاجة من الحوائج ، ومنهم من نحتاج إليهم في إصلاح ما يتعلق بالدور ، من بناء وتهئية للوآزمها المختلفة من إنارة وسباكة ، وغيرها من منافع الحياة المختلفة ، ومنهم من نحتاج إليهم في البيع والشراء ، وغير ذلك من أصناف التعامل والحاجات الكثيرة التي لا تحصى .

والطرف المقابل له : وهم الذين يمثلون **الصف الثالث** ، وهم على النقيض تمامًا ، فهم كالداء لا يُحتاج إليهم ، والمسلم العاقل يشقى بهم ، ومنهم بعض الأقارب ، ولا يسلم أحد من الأقارب الذين يكيدون له ، ولقد اصطلينا جميعاً بأذية بعضهم ، وصدق من وصف هذا الصنف من الناس بالعقارب ، كفانا الله شرهم ، ودفع عنا أذاهم .

ومن هذا الصنف من الناس جار السوء ، وحسبك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم استعاذ منه فقال : ((اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنْ جَارِ السُّوءِ فِي دَارِ الْمُقَامَةِ ، فَإِنَّ جَارَ الْبَادِيَةِ يَتَحَوَّلُ))^(٣) .

فكثير من الناس يُبتلون بجيران سوء ينغصون عليهم حياتهم ، بل إن جيران السوء قل أن يسلم من أذيتهم أحد في زماننا هذا ، وقد تنقلت في أحياء عدة في الرياض من نحو ٣٧ عاماً فما سلمت في حيٍّ من هذه الأحياء من جار السوء ، وأقلهم شرّاً من لا تراه في المسجد إلا نادراً .

وهناك صنف من الناس يحار العاقل في الحكم عليهم ، فلا يدري بأيّ صنف يُلحقهم ، وهم الثقلاء ، لكن عامتهم يُلحقون بالصنف الثالث ، وما عندهم من خير يُحجب بثقل طباعهم ، ومنهم طلاب علم يزعجون أشياخهم بكثرة اتصاهم بالهاتف وإلحاحهم الشديد ، فيضيق بهم هؤلاء الشيوخ ويتخففون من إزعاجهم ، وهذا في القديم والحديث على حدّ سواء .

وأقوال أهل العلم في التنفير من سلوك الثقلاء كثيرة جداً ، شعراً ونثراً .

عن الأصمعيّ قال : قال ابن أبي طرفة ((مجالسة الثقل حُمَى باطنة))^(٤) .

وعن عبدالله بن شبرمة قال : سمعت الشعبي يقول :

وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَخِيفُ وَمِنْهُمْ كَرَحَى الْبِزْرِ رُكِبَتْ فَوْقَ ظَهْرِي^(٥)

وقيل للأعمش : ما تصنع عند مُطَهَّرٍ ؟ قال : ((آتيه كما آتى الحُشَّ إذا لي إليه حاجة))^(٦) .

وقال رجل للشعبيّ : ((ما زلت في طلبك ، فقال الشعبيّ : وما زلت منك فاراً))^(٧) .

وجاء رجل - من الثقلاء - إلى الأعمش ، فقال : يا أبا محمد اكرتيت حماراً بنصف درهم وأتيتك

أسألك عن حديث كذا وكذا ، فقال : ((اكرت بالنصف الآخر وارجع))^(٨) .

قال ابن طاوس : ((لكلام ثقيلٍ أشدَّ عليّ من الشيطان))^(٩) .

ومن الروايات الشائعة أن رجلاً كان يتردد على الأعمش ، والأعمش يستثقله فقال هذا الرجل :

لولا أن أشق عليك لزرتك في اليوم مرتين ، فأجابه الأعمش : ((والله إنني أمرض منك وأنت في بيتك

فكيف إذا زرتني)) .

أما الصنف المَرَضِيّ الخفيف على النفس ، الذين هم كالغذاء ، فإن العاقل لا يستغني عنهم ، وهو

دائم الأنس بهم ، إذا غابو عنه حده الشوق إليهم ، وتاق إلى رؤيتهم ، وإن التقى بهم فرح بلقياهم

واستمع بالحديث معهم ، وبث شجونه إليهم ، وشاورهم في كل ما يههم ، وصدق عليهم قول الشاعر :

إِنَّ أَخَاكَ الصَّدْقَ مَنْ كَانَ مَعَكَ وَمَنْ يَضُرُّ نَفْسَهُ لِيَنْفَعَكَ
وَمَنْ إِذَا رَيْبُ الزَّمَانِ صَدَّكَ شَتَّتَ فِيهِ شَمْلَهُ لِيَجْمَعَكَ^(١١)

إنهم الذين تحبهم في الله ويحبونك فيه ، وهم الذين لا يزدادون إلا قلة في زماننا ، كما قال الإمام الشافعي رحمه الله تعالى :

تَصَفَّحْتُ إِخْوَانِي فَكَانَ أَقْلَهُمْ عَلَى كَثْرَةِ إِخْوَانِ أَهْلِ ثِقَاتِي^(١٢)

وهم الذين يصدق عليهم قول الشاعر :

مَنْ لَيْسَ فِي خَيْرِهِ مَنْ يُفْسِدُهُ عَلَى الصَّدِيقِ وَلَا فِي صَفْوِهِ كَدْرُ
وَلَيْسَ فِيهِ إِذَا اسْتَنْظَرْتَهُ عَجَلُ وَلَيْسَ فِيهِ إِذَا يَأَسَرْتَهُ عُسْرُ^(١٣)

أسأل الله عز وجل أن يجعلنا ممن وصفهم علقمة بن لبيد العطاردي بقوله في نصيحته لابنه : ((يَا بُنَيَّ

إِذَا نَزَعْتِكَ إِلَى صُحْبَةِ الرِّجَالِ حَاجَةً فَاصْحَبْ مِنْهُمْ مَنْ إِذَا صَحِبْتَهُ زَانَكَ ، وَإِنْ خَدَمْتَهُ صَانَكَ ، وَإِنْ
أَصَابَتْكَ خَصَاصَةٌ مَانَكَ ، وَإِنْ قَلْتَ صَدَقَ قَوْلِكَ ، وَإِنْ صُلْتَ شَدَّ صَوْلَكَ ، وَإِنْ مَدَدْتَ يَدَكَ بِفَضْلِ
مَدَّهَا ، وَإِنْ رَأَى مِنْكَ حَسَنَةً عَدَّهَا ، وَإِنْ سَأَلْتَهُ أَعْطَاكَ ، وَإِنْ سَكَتَ ابْتَدَاكَ ، وَإِنْ نَزَلَتْ بِكَ إِحْدَى
الْمِلِمَّاتِ آسَاكَ ، مَنْ لَا تَأْتِيكَ مِنْهُ الْبَوَائِقُ ، وَلَا تَخْتَلِفُ عَلَيْكَ مِنْهُ الطَّرَائِقُ ، وَلَا يَخْذُلُكَ عِنْدَ الْحَقَائِقِ
وَإِنْ حَاوَلَ حَوِيلًا أَمَرَكَ ، وَإِنْ تَنَازَعْتُمَا مُنْفِسًا أَتْرَكَ)) .^(١٤)^(١٥)^(١٦)^(١٧)^(١٨)^(١٩)^(٢٠)^(٢١)^(٢٢)^(٢٣)^(٢٤)^(٢٥)

وصلَّى الله وسلَّم على خير خلقه وختام أنبيائه ، وعلى آله وصحبه .



بقلم العبد المفتقر إلى عفو ربه ومغفرته

عبدالله بن محمد سفيان الحكمي

ربيع أول / ١٤٣٣ هـ

* الهوامش :

- (١) لعل الشيخ محمد علي بن عبدالودود اطلع على كلام المأمون الخليفة العباسي الذي أورده الإمام ابن قتيبة في عيون الأخبار (٢/٤٠٧-ط : المكتب الإسلامي) ونصه : ((الإخوان ثلاث طبقات : طبقة كالغذاء لا يُستغنى عنه ، وطبقة كالدواء لا يُحتاج إليها إلا أحياناً ، وطبقة كالداء لا يُحتاج إليها أبداً)) .
- (٢) الضمير في قوله ((له)) يعود إلى معلوم في الذهن ، وهو الداء المفهوم من السياق .
- (٣) أخرجه ابن أبي شيبه (٨/٣٥٩) وعنه أبو يعلى في مسنده برقم (٦٥٣٦) والطبراني في الدعاء برقم (١٣٤٠) وأخرجه البخاري في الأدب المفرد برقم (١١٧) والنسائي في الصغرى برقم (٥٥٠٢) وفي الكبرى برقم (٧٨٨٦) وابن حبان في صحيحه برقم (١٠٣٣) والحاكم في المستدرک (١/٥٣٢) وقال : صحيح على شرط مسلم ، ومن طريقه البيهقي في ((الدعوات الكبير)) وغيرهم من طرق عن ابن عجلان عن سعيد بن أبي سعيد عن أبي هريرة رضي الله عنه برقم (٣٤٧) وله شواهد ومتابعات يرتقي بها إلى الحسن لغيره ، والكلام عليه من ناحية الصناعة الحديثية يطول به الكلام ، ومعنى ((يتحول)) في آخر الحديث : ينتقل ، والله أعلم .
- (٤) و (٥) و (٦) و (٧) و (٨) و (٩) و (١٠) نقلاً عن كتاب ((ذم الثقلاء)) لابن المرزبان ، ص (٦٢-٩٧) .
- ولفظ ((البُرّ)) الواردة في بيت الشعبي : بكسر الباء وفتحها - والكسر أفصح - كل حب يُبذر للنبات ، كما في القاموس .
- (٦) مُطَهَّر : هو مُطَهَّر بن الهيثم بن الحجاج الطائي ، متروك ، كما في ((التقريب)) ص (٥٦٤) .
- (١١) هذان البيتان سمعتهما قديماً من العلامة الشيخ محمد بن سالم البيهقي ، رحمه الله تعالى . وهما في ((عيون الأخبار)) لابن قتيبة (٢/٤٠٩) لكن فيه ((من لن يخذعك)) بدل ((من كان معك)) .
- (١٢) ديوان الإمام الشافعي ، بعناية محمد عبدالرحيم : ص (١٦٣) .
- (١٣) عيون الأخبار (٢/٤٠٩) ونسبه إلى أعشى باهلة .
- (١٤) نزعتك حاجتك : غالبتك فنازعتك نفسك إلى هواها ، وزانك : كان زينة لك .
- (١٥) و (١٦) الخصاصة : الفقر والحاجة واختلال الحال ، و ((مانك)) كفاك وأنفق عليك وعالك ، يقال : مانه يُمُونه ، إذا احتمل مؤونته وقام بكفايته .
- (١٧) و (١٨) صُلَّتْ : مضيت في أمورك بعزم ، وهو من قولهم : صال الجمل يصول ، إذا وثب على راعيه فأكله ، والمراد : شَدَّ من عزمك .
- (١٩) و (٢٠) المُلِمَّات : جمع مُلِمَّة ، وهي النازلة الشديدة من شدائد الدهر و ((آساک)) : أنالك من ماله فجعلك مساوياً له فيه .
- (٢١) البوائق : جمع بائقة ، وهي الشرور والغوائل ، وهو من قولهم للداهية والبلية تنزل بالقوم : أصابتهم بائقة .
- (٢٢) الطرائق : جمع طريق ، وهي الحالة والسيره ، أي لا تغير حاله الظروف .
- (٢٣) و (٢٤) حاول حويلاً : أراد أمراً ، والحويل : الاسم من حاول و ((آمرك)) : شاورك ، يقول : إن همَّ بأمر وعزم عليه نفسه شاورك .
- (٢٥) المُنْفِس : النفس ، المرغوب فيه ، الذي له قدر ومنزلة ، ويُتنافس فيه ويرغب .